الفصل التاسع

ظهور اللواء – والجهاد الأكبر (يناير سنة ١٩٠٠م)

بدأ «مصطفى كامل» حياته الصحفية وهو بعد في مدرسة الحقوق؛ إذ أصدر مجلة (المدرسة) في (فبراير سنة ١٨٩٣م)، كما تقدم بيانه في الفصل الثاني (ص٤٧)، ثم أخذ يرسل مقالاته إلى الصحف من مصرية وأوربية كما أسلفنا، وكانت (الأهرام) أكثر الصحف ترحيبًا بمقالاته، يليها (المؤيد)، وقد رأى الفقيد أن لا بدَّ له من جريدة يومية يتصل بالرأي العام بواسطتها باستمرار، ويغذي بها عقول القراء ونفوسهم، ثم تكون علمًا للحركة الوطنية التي بعثها واقتاد زمامها، وقد اختار لهذه الجريدة اسم (اللواء)، فكان اختيارًا موفقًا؛ إذ كان اللواء هو الراية التي التف حولها الوطنيون سنين عديدة طول حياته، وبعد وفاته، وكان ظهور «اللواء» من أبرز أعمال الفقيد وأكبرها أثرًا في الشعب وفي الحركة الوطنية حتى صار أكبر تعريف له بين معاصريه أنه (صاحب اللواء)، وعلت منزلة (اللواء) في نفوس الشعب، وصار اسمه محببًا للنفوس، حتى سمى باسمه كثير من محلات التجارة والمقاهي والمعاهد، وإلى الآن لا يزال اسم (بار اللواء) علمًا للمقهى المعروف بهذا الاسم أمام دار الأهرام، واسم (أجزاخانة اللواء) علمًا على الصيدلية الموجودة بباب اللوق... إلخ.

أعد المترجم معدات (اللواء) عام (١٨٩٩م)، وصدر العدد الأول منه يوم الثلاثاء ٢ يناير سنة ١٩٠٠م (غرة رمضان سنة ١٣١٧هـ)، وكانت داره الأولى بالمنزل رقم (١٣) بشارع فهمي بجوار محطة باب اللوق، ثم انتقل بعد حوالي عامين إلى المنزل الفخم رقم (٢٩) بشارع الدواوين[1] (نوبار باشا الآن) أمام وزارة العدل، وهو المنزل الذي عرف بدار اللواء، وتوفي فيه الفقيد وقد علا شأن الجريدة في عالم الصحافة من أول ظهورها، وأخذت مكانتها في نفوس الشعب، ولا غرو فإن شخصية صاحبها قد حببتها إلى القلوب، وأضفت عليها روعة ومكانة سامية، وكان

(١) الآن رقم (٣١) مكان مدرسة عابدين الابتدائية الأميرية.

المترجم لطول خبرته بالصحافة واتصاله المستمر بها -سواء في مصر أو في أوربا- قد اكتمل نضجه الصحفي، فضلًا عن كفايته وذكائه ومقدرته الفطرية في التحرير والإدارة، فظهر الفن الصحفي في اللواء كاملًا، مما كان له أثره في انتشاره وعلو مكانته، وكان يصدر يوميًّا باستمرار حتى في يوم الجمعة، ولا يحتجب عن القراء إلا في اليوم الأول من عيد الفطر وعيد الأضحى، ثم أخذ يحتجب يوم الجمعة ابتداءا من شهر (مايو سنة ١٩٠١م)، وكان يصدر في أربع صفحات، ثم في ثماني صفحات باستمرار منذ أواخر سنة (١٩٠٦م)، بعد أن أحضر له آلة طباعة كبرى تطبع في الساعة الواحدة (١٢٠٠٠) نسخة.

وكان الفقيد يكتب افتتاحية اللواء في أكثر الأيام ويوقع عليها بإمضائه، وممن كانوا يكتبون فيه: المغفور له محمد بك فريد، وأحمد شوقي أمير الشعراء، وإسماعيل باشا صبري، وخليل بك مطران، ومصطفى بك نجيب مؤلف كتاب (حماة الإسلام)، وإسماعيل بك شيمي، والأستاذ ويصا واصف، والأستاذ محمد فريد وجدي، ومحمد بك لبيب البتانوني، ومحمود بك سالم، وفؤاد بك سليم (باشا)، ومحمود بك أنيس، ومحمود أفندي سلامة، وأحمد أفندي حلمي، والأستاذ عبد القادر حمزة، والأستاذ محمد لطفي جمعة، ثم عثمان أفندي صبري، وسيد علي، وأمين عمر (أبو حفص)، ومحمد صادق عنبر، ومحمد علام، وغيرهم. ثم أخذ تلاميذه يكتبون فيه منذ سنة (١٩٠٦م)، وصار اللواء شبه مدرسة تعلم المصريين حقوقهم وواجباتهم، وتبث فيهم روح الوطنية والأخلاق، وتبصرهم بحقائق بلادهم ومساوئ الاحتلال وصنائعه، وتستحثهم على الجهاد في سبيل الاستقلال، وكان الفقيد لا يفتأ يذكرهم على صفحاته بعبر التاريخ، ويحيي ذكريات الحوادث الماضية من مفاخر وهزائم، كذكرى تنصيب محمد علي بإرادة الشعب، وهزيمة الإنجليز في معركة رشيد سنة (١٨٠٧م)، ثم ذكريات ضرب الإسكندرية سنة (١٨٨٢م)، واحتلال الإنجليز العاصمة، وكان أيضًا يفسح صحائف اللواء لبيان جهاد الأمم في سبيل حريتها، ويضرب الأمثال للأمة بما يجب أن يكون عليه الجهاد والعمل،

فضلًا عن البحوث العلمية والاقتصادية والاجتماعية والأدبية، فغذى بذلك عقول المصريين ونفوسهم بروح الوطنية.

وأصدر مجلة أسماها (مجلة اللواء)، وهي مجلة شهرية تشتمل على أهم المقالات التي تنشر في جريدة اللواء اليومية، وصدر العدد الأول منها في (فبراير سنة ١٩٠٠م). وفي (١٩٠٥) أصدر جريدة أسبوعية باسم (العالم الإسلامي) كان ينشر فيها المقالات والأنباء التي تهم الأمم والدول الإسلامية، وبخاصة تعريب ما تكتبه الصحف والمجلات الأوربية عن العالم الإسلامي.

ولقد كنتُ حينما ظهر «اللواء» سنة (١٩٠٠م) لا أزال تلميذًا بالقسم الابتدائي بمدرسة رأس التين بالإسكندرية، حيث كان والدي يتولى منصب الإفتاء بمحكمتها الشرعية، ولم أكن قد فطنت بعد لقراءة الصحف، وقضيت معظم القسم الثانوي أيضًا غير ملتفت إليها، وبدأت خلال سنة (١٩٠٤م) أذهب إلى قهوة بلدية أنيقة بشارع رأس التين، تجاه سراي محسن باشا، في كل أسبوع مرة، وكان صاحبها «الحاج أحمد» يقدم لنا شراب الليمون (اليمونادة)، وكان يتقنه كل الإتقان، حتى صار علمًا على قهوته، ويطلعنا على بعض الصحف، ومنها اللواء، ولكن لم أتبين بعد منهجه، ولا منهج الصحف الأخرى، ولم تكن في ذهني أي صورة عن مصطفى كامل، إذ لم أكن رأيته بعد أو سمعته، وكنت وقتئذ في الخامسة عشرة من عمري، ولما ذهبت إلى القاهرة ودخلت مدرسة الحقوق (أكتوبر سنة ١٩٠٤م) لفت نظري اسم قهوة بجوار المدرسة تسمى (قهوة الحقوق) بشارع عابدين، لصاحبها الخواجة (أندريا)، فأعجب طلبة الحقوق -وأنا منهم- بهذا الاسم، واخترناها لنقضي أوقات الفراغ والسمر بها، وبدأت هناك أقرأ اللواء قراءة فهم وإدراك، فتعجبني روحه ومقالاته، ثم صار بمثابة المدرسة التي تلقيت عنها مبادئ الوطنية، كما أنه كان مدرسة للجيل كله.

خطبة الفقيد بالإسكندرية (يونية سنة ١٩٠٠م)

لم تصرف الفقيد أعماله في الصحافة عن توجيه الرأي العام بخطبه الوطنية التي كان لها من الوقع والأثر في النفوس أضعاف ما كان القلم والكتابة، فألقى (مساء ٢ يونية نسة ١٩٠٠م) خطبة سياسية بتياترو زيزنيا بالإسكندرية، في جمعٍ كبير من الوطنيين، وحضرها كثير من الأجانب، وكان موضوعها شرح الحالة السياسية في ذلك الحين، وشحذ العزائم لمتابعة الجهاد والإشادة بالوطنية، ثم الرد على حملات الصحف الأوربية في ذلك الحين على الإسلام؛ بدأ الخطبة بقوله:

«سادتي وأبناء وطني الأعزاء:

كلما جئت الإسكندرية، ورأيت هذه الحياة الحقيقية التي جعلت لكم مقامًا محمودًا بين بني مصر، أعود شاعرًا بأن لي في هذه المدينة الزاهرة أساتذة في الوطنية عنهم تؤخذ دروس محبة الأوطان، ومنهم تعرف الأمة حقوقها وواجباتها، وهذا ما أخرني في السنين الأخيرة عن الوقوف أمامكم هذا الموقف، ومناجاتكم في شئون الوطن العزيز، ولكني أشعر بأن تبادل الميول، وانتقال العواطف الطاهرة من فؤاد إلى فؤاد، واجتماع القلوب في وقتٍ واحد حول آمال واحدة، وسريان روح مشتركة في هذا المجموع العظيم، مما يزيدنا اعتقادًا على اعتقاد، وحبًّا للديار على حب، ويخفف عن الوطن المقدس آلام مصائبه العظام».

وقال عن إيمانه بالمستقبل:

«إني أشد الناس أملًا في مستقبل أمتي وبلادي، وأرى الشعب الذي أنا منه جديرًا بالرفعة والسمو، حقيقًا بالمجد والحرية والاستقلال، ولولا هذا الأمل وهذا الاعتقاد لكنت فارقت الحياة وتركت الدنيا غير آسف على أحد، وكيف لا أكون ذا أمل وهذه أمتي أجد فيها روحًا جديدة وحياة صادقة ووطنية ناشئة قوية، ومن

منكم لا يرى ما أرى؟ هل ينكر أحد شعور الأمة بحالتها وانتباهها من رقدتها من وهدتها وعملها لخيرها وسعادتها».

ومما قاله في الرد على حملات الصحف الأوربية على الإسلام لمناسبة مقالات المسيو «هانوتو»:

«قد يظن بعد الناس أن الدين ينافي الوطنية، أو أن الدعوة إلى الدين ليست من الوطنية في شيءٍ؛ ولكني أرى أن الدين والوطنية توأمان متلازمان، وأن الرجل الذي يتمكن الدين من فؤاده يحب وطنه حبًّا صادقًا، ويفديه بروحه وما تملك يداه، ولست فيما أقول معتمدًا على أقوال السالفين الذين ربما اتهمهم أبناء العصر الحديث بالتعصب والجهالة؛ ولكني أستشهد على صحة هذا المبدأ بكلمة بسمارك أكبر ساسة هذا العصر وهو خير رجل خدم بلاده ورفع شأنها، فقد قال هذا الرجل العظيم بأعلى صوته: لو نزعتم العقيدة من فؤادي لنزعتم محبة الوطن معها».

وقال عن ارتباط المسلمين والأقباط:

«كيف يستطيع رجل وطني أن يدعو للشقاق والبغضاء، وهذه الدعوة مناقضة للوطنية الصحيحة، فالأقباط إخوة لنا في الوطن تجمعنا بهم أشرف رابطة، وقد عشنا معهم القرون الطوال على أتم وفاق وأكمل اتفاق».

وكانت الخطبة من أبدع وأبلغ خطبه في الوطنية.

سفره إلى أوربا (يونية سنة ١٩٠٠م)

سافر الفقيد إلى أوربا عن طريق الإسكندرية يوم (١٦ يونية سنة ١٩٠٠م) كعادته السنوية، وعهد بإدارة اللواء في غيبته إلى شقيقه علي بك فهمي كامل.

وكان لا يفتأ يرسل مقالاته الوطنية إلى اللواء في سياحته، يناجي بها الوطن ويسدي إلى المصريين نصائحه السامية؛ فمن ذلك مقالته (صورة الوطن العزيز)

كتبها على ظهر الباخرة سميراميس التي أقلته من الإسكندرية ونشرت في لواء (٢٨ يونية ١٩٠٠م)، ومقالة (وطن كوشوت) أرسلها من بودابست في (٣٠ يونية سنة ١٩٠٠م) عن جهاد كوشوت بطل المجر، ومقالته (مظاهر المدنية الحقة) من فيينا في (٣١ يولية سنة ١٩٠٠م) عما يجب أن يفيده السائح المصري في أوربا، قال فيها: «لا يدرك الشرقي منا أسرار المدنية الغربية وأسباب قوة ممالكها إلا إذا زار المدارس والمعامل هنا وهناك، ووقف على نظامات الحكومات، وقرأ دستورها، وأدرك أن كل جنس منها غيور على عاداته وأخلاقه، حريص على دينه ولغته، وأن الفرد يمثل في نفسه الأمة بأسرها، ويسير في كل حركاته وسكناته على ناموس ثابت ودستور لا يتغير».

وعاد إلى مصر في (أغسطس سنة ١٩٠٠م)، واستأنف جهاده الصحفي في اللواء، وكتب في عدد (١٤ سبتمبر سنة ١٩٠٠م) مقالة مهمة عن ذكرى احتلال الإنجليز العاصمة.

دعوة الأمة إلى الاعتماد على نفسها

وأقام يوم (أول أكتوبر سنة ١٩٠٠م) احتفالًا فخمًا في مدرسته لتوزيع الجوائز على النابغين من تلاميذها، وقد أمَّه جمع كبير من صفوة القوم دلَّ على ما ناله في نفوس المصريين من محبة واحترام وتقدير لجهاده في سبيل الوطن، وكان في مقدمة الحاضرين إسماعيل باشا محمد رئيس مجلس شورى القوانين في ذلك العهد، وألقى علي بك فهمي كامل خطبة شكر فيها الحاضرين وأفاض في بيان أعمال المدرسة، ثم وقف الفقيد وألقى خطبة نوَّه فيها بفضل العلم، وجعل موضوعها وجوب اعتماد الأمة على نفسها في نهضتها؛ قال في هذا الصدد:

«لست الآن واقفًا أمامكم موقف المتباهي بعمله المعجب بصنعه؛ ولكني واقف موقف الخادم لأمته، المفدي نفعها براحته، فقد أسست هذه المدرسة غير مفكر في صعوبة العمل وخطورة الأمر، غير ملتفت إلى أقوال المثبطين للهمم، المميتين

للعزائم، ونهضت بها مدفوعًا باعتقاد تملك فؤادي، **وهو أن كل فرد في هذه الأمة مطالب بخدمتها مهما قصر الآخرون وأهمل المهملون**. وسرت في طريقي هذا معتمدًا على فاطر الأرض والسماء، نصير العاملين، وعون المجتهدين».

إلى أن قال:

«إن كل فرد مهما كان صغيرًا مطالب بواجب يؤديه لبلاده ووطنه وأمته، ولو ترك كل مصري لأبنائه من بعده حب العمل وعدم الاعتماد على الغير إرثًا، لأصبحنا وفينا حياة طيبة تحيي الآمال، وتبعث العزائم عند الرجال، وإني لست أرى لبلادي آفة تهددها بالفناء مثل اعتقاد أبنائها أن الحكومة هي كل شيء، وبيدها كل أمر وعليها كل واجب، وأنهم لا يسألون عن هذا الوطن أبدًا، وعلى حين أن التاريخ ينطق بأفصح بيان أن الأمة التي تعتمد في كل شئونها على حكومتها أمة منزلتها من الحكومة منزلة العبيد من سيده؛ أمَّا الأمة التي تظهر في ميدان الحياة بنشاطها وجهادها وأعمالها، متحدة مع الحكومة تارة، عاملة وحدها تارة أخرى، هي الأمة التي منزلة الحكومة منها منزلة العبد من سيده، وها هي ذي الأمم الغربية تجدها تسبق حكوماتها في فتح المدارس وإنشاء المكاتب وتأسيس المستشفيات والقيام بكل عمل خطير؛ مع أن حكوماتها من الثروة وقوة السلطان بمكانٍ».

دعوته إلى إحياء الصناعة

ودعا في اللواء إلى إحياء الصناعة في مصر ونشر التعليم الصناعي في عدد (٢٥ أكتوبر سنة ١٩٠٠م)، قال في هذا الصدد:

«فإيجاد روح الصناعة في البلاد هو بلا مراء أسمى خدمة تقدم إليها وأكبر سعادة تجهز لرجال الغد، وقد أدرك الكثير من فضلاء مصر هذه الحقيقة وهذا الواجب، فتبادلوا الحديث في أمر تأسيس مدرسة صناعية، ولكنهم لم يتعدوا ذلك إلى العمل، وأشد المصريين اهتمامًا بهذا المشروع الجليل هم أعضاء جمعية العروة

الوثقى الذين برهنوا بأعمالهم المشهورة على أنهم رجال عمل يعرفون لمصر حقوقها عليهم، ولا يقصرون في تأدية هذه الحقوق، فوضع لهم صاحب الهمة الحديدية «حسبو بك محمد» مشروع تأسيس مدرسة صناعية لا يكلفهم من المال كثيرًا؛ ولكنه يعود على البلاد وأبنائها بالخير الجزيل».

إحياء ذكرى الرجال العاملين

كان الفقيد لا يفتأ يدعو الأمة إلى إحياء ذكرى العظماء والأفذاذ الذين خدموها في نهضتها، ويرى في ذلك دليلًا على حياة الأمة، وقد كتب في عدد (١٠ مارس سنة ١٩٠١م) يؤنب الأمة على إهمالها تخليد ذكرى فقيد المعارف «علي باشا مبارك»، قال:

«لا شيء يرفع جال مقام الوطنية في بلاد مثل إحياء ذكرى الرجال الذين أخلصوا في خدمتها، وقضوا أعمارهم في العمل لإعلاء شأنها وتحقيق آمالها، ولا شيء يميت الوطن والوطنية مثل تمكن داء النسيان في أمة وجهلها لتاريخها، وعدم تقديرها للرجال المخلصين في خدمتها، وقد بليت هذه الأمة المصرية العزيزة بذلك الداء العضال، فتراها لا تذكر الرجال إلا إذا كانوا القابضين على أزمة أمورها، أو المحركين لحركة الرأي العام فيها، ولا تهتم بالحوادث إلا عند حدوثها، فليس للمصائب في نفوس أبنائها أثر يبقى، وليس كذلك للعظمة الماضية بقية باقية في الأفئدة والضمائر، فلا غرابة إذا كان ذلك للعظمة الماضية بقية في الأفئدة والضمائر، فلا غرابة إذا كان ذلك سببًا من أسباب تأخرها وعلة من علل انحطاطها».

إلى أن قال:

«نهض المصريون عند وفاة المرحوم علي باشا مبارك نهضة النار في الرياح، ونادى كبير منهم بوجوب عمل اكتتاب عام لإقامة أثر يخلد ذكرى هذا الشيخ الجليل الذي خدم العلم والأدب والوطن خدمة لا تنسى، ولا يصح لأمة تريد أن تحيا أن تنساها، فجمع شيء من المال، ومضت الأيام والأعوام، وهذا المشروع دفين

لا يريد القوم أن يظهروه للملأ مرة ثانية، أو يحدثوا الناس عنه حديثًا جديدًا، فماذا تم فيه؟ وماذا قررت اللجنة المكلفة بإخراجه إلى الوجود؟ هل ذهبت من النفوس محبة فقيد المعارف؟ أم محت الأيام فضله وقضت على عمله حتى نسي ونسيت آثاره؟ اللّٰهم إن مصر لا تنال من السعادة نصيبها، ولا تبلغ من الاستقلال مطلبها إلا إذا جعل أساس تربية أبنائها تخليد ذكرى النافعين من رجالها وبث في نفوس الناشئين الاقتداء بهم ومحبة الديار محبة العارف بجمالها، المحيط بأسرار تاريخها، الخبير بعلل تأخرها وأدواء انحطاطها، وإلا فمحال أن يبنى على غير هذا الأساس مجد صحيح وعز دائم».

هذا ما كتبه مصطفى كامل عن إهمال الأمة تخليد ذكرى «علي باشا مبارك»، فليت شعري ماذا هو قائل عن إهمال الأمة تخليد ذكراه هو؟! لقد أفنى عمره في بعث الحركة الوطنية، وضحى بحياته في سبيل مصر، وذوت زهرة شبابه في (فبراير سنة ١٩٠٨م)، وصنع له تمثال لتخليد ذكراه، فبقي التمثال أربعة وعشرين عامًا سجينًا، تضن عليه الحكومة بإقامته في أحد الميادين العامة والأمة غافلة عن شأنه.

ثم أفرج بعد لأي عن تمثال الفقيد، واتفق على إقامته في أحد الميادين الكبيرة العامة، فقرر مجلس الوزراء بجلسة (أول سبتمبر سنة ١٩٣٨م) إقامته في ميدان العتبة الخضراء، ثم أقيم التمثال في ميدان (مصطفى كامل) كما تراه مفصلًا في الفصل الخامس عشر.

خطبته في افتتاح مدرسة الشوربجي ببريم (إبريل سنة ١٩٠١م)

كان مصطفى كامل مشغوفًا بنشر التعليم القومي في البلاد، داعيًا إلى هذا الغرض عاملًا على تحقيقه. اعتبر ذلك في تشجيعه حسين بك القرشوللي على إنشاء مدرسته خطبته في افتتاحها، ثم إنشائه مدرسة (مصطفى كامل)، وقد أسس أحد خيار الأعيان بمديرية البحيرة وهو المرحوم مصطفى بك الشوربجي سنة (١٩٠١م) مدرسة مجانية في بلدته (بريم) -قائمة حتى اليوم- وأقام احتفالًا فخمًا

بافتتاحها يوم (١٥ إبريل) من تلك السنة حضره مدير البحيرة في ذلك الحين (أحمد فائق باشا) وكان من خاصة أنصار الفقيد المعجبين بجهاده، وحضرها جمع كبير من الأعيان والكبراء، وقد دعي مصطفى كامل إلى حضور الاحتفال فلبى الدعوة، وكان موضع الإجلال والاحترام من الحاضرين، وألقى خطبة من خطبه العظيمة عن فضل العلم، وأثنى على منشئ المدرسة، ونوه بحضور الناس أفواجًا إلى هذا الاحتفال إجلالًا للعلم وإظهارًا لما في صدورهم من حب للوطن والميل لخيره، وتكلم عن واجبات الأمة أفرادًا وجماعات نحو الوطن. ودعا في خلال الخطبة دعوته الوطنية، وبرهن على أن في الأمة حياة حقيقية واستعدادًا عظيمًا للتقدم إذا وجد من يستحثها على العمل، قال:

«سادتي الأعزاء:

إني بكل ارتياح حضرت إلى هذا البلد الأمين، وانتقلت من عاصمة الديار إلى هذه الجهة المباركة لمشاركة القوم في فرحهم واحتفالهم بما يصح أن نسميه: عيد العلم والتربية».

إلى أن قال:

«ليس في تشييد المدارس وإقامة المستشفيات والتنافس في الخيرات النافعة شيء يسر لوطن ويشرح صدره مثل نفي تهمة الموت الأدبي عن المصريين، قال القائلون وردد المرددون: «إن المصريين اتفقوا على ألا يتفقوا»، وسرت هذا الكلمة في الأمة وتناقلها الصغير عن الكبير، وشرحها فلاسفة السوء واعتقد الكثيرون صحتها، حتى أخذ القوم يتساءلون عن مبلغ هذه الأمة من القوة والحياة، يتساءلون: هل هي إلى المجد والارتقاء سائرة؛ أم إلى الموت والحياة والفناء هاوية؟

فأجبهم يا مَن رفعت للعلم والوطن منارًا عاليًا، أجبهم بأن المصريين اتفقوا على أن يتفقوا، وأن جمعية العروة الوثقى في الإسكندرية، وجمعية المساعي المشكورة في المنوفية، والجمعية الخيرية الإسلامية في أنحاء القطر، تنادي بأن في الأمة رجالًا

أحياء ذوي همم عالية، وعزائم صادقة، أجبهم بأن هذه المدارس الأهلية التي أنشئت في الديار بهمم الأفراد هي الحجج الدامغة على حياة الأمة ووجود من يهتم لأمر تقدمها ونهضتها.

لا داء أضر بالأمة وأشد وبالًا عليها مثل داء اعتقادها السوء في نفسها، ويأسها من مستقبلها، فجاهدوا ضد هذا الداء ما استطعتم، وأعلنوا عليه حربًا عوانًا، وبثوا في أبناء الأمة مبادئ الثقة بالنفس والاعتماد على المجموع، وربوا البنين والبنات على محبة الوطن.

الوطن! الوطن! كلمة ترددها الألسنة وتكتبها الصحف، وينطق بها الناس على اختلاف مراتبهم، ويبح بها كل إنسان، فماذا للفرد الواحد في هذه الكلمة، بل ماذا له في الوطن نفسه؟ له كل شيء، ونصيبه من فخاره عظيم، كما أن مسئوليته في مصائبه كبرى.

ألا يشعر الواحد بعظمة حقيقية وسمو كبير إذا قال: (بلادي) وكانت بلاده عالية المقدار رفيعة الشأن والاعتبار؟ ألا يجد في كلمة (بلادي) التصاقًا بالوطن واشتراكًا في أفراحه وأحزانه بنصيب كبير؟ ألا تدل هذه الكلمة وحدها على أن كل واحد منا مطالب بنصرة الوطن وإسعاده، مسئول أمام الله وأمام الناس عما يناله من سوء وضر؟

ألا يكون المصري موضع الإكرام والإجلال بين شعوب الورى إذا قال: (مصر بلادي) وكانت مصر مصدر العلم والنور، ومقر التمدن والتقدم، ومثال القوة والعظمة في الحرية والاستقلال؟

«أجل، للصغير كما للكبير من المصريين نصيب في رفعة الوطن أو انحطاطه، فلا يدعين أحد منكم أن غيره المسئول دونه عن القيام بخدمة البلاد وإعلاء شأنها، **((كلكم راع، وكل راع مسئول عن رعيته))**».

في باريس

سافر مصطفى كامل إلى باريس في (صيف سنة ١٩٠١م)، وانتهز الفرصة لرفع صوت مصر في الصحافة الأوربية، وكانت حادثة فاشودة وما انتهت إليه من تراجع فرنسا وانصرافها عن فتح باب المسألة المصرية قد أوجدت جوًّا من اليأس من نجاح مصر في جهادها، فرفع الفقيد صوتها من جديد ليعلن عن أماني قومه ومثابرته على الجهاد.

نشرت جريدة (الإكلير) الباريسية في عدد (٢٩ يولية سنة ١٩٠١م) مقالة في هذا الصدد قالت فيها:

«حضر أخيرًا إلى باريس وطني مصري له في بلاده نفوذ عظيم، ألا وهو مصطفى كامل بك صاحب جريدة (اللواء) التي تظهر في القاهرة، وهو مشهور في أوربا، ويعرف اسمه معرفة أكيده كل المشتغلين بمسائل مصر، وهو خطيب فصيح اللسان قوي الجنان، طالما جمع صوته الصفوف، وارتاح لسماع أقواله الكثيرون من أبناء وطنه وغيرهم، وقد اهتم الإنجليز بالقضاء على هذا الاحتجاج الحي ضد احتلالهم مصر، وحاولوا محو تلك الدعوة للاستقلال، ولكنهم لم يفلحوا، ولا مراء في أن هذا الشاب المصري هو من أهم أعلام العالم الإسلامي الذين يهمنا موقفهم، فهو جذاب يستميل محدثيه بسهولة، وآدابه عالية، ويتكلم الفرنسية ببلاغة تامة ورقة سليمة».

وقد سأله محرر الجريدة عن شئون مصر، فأجابه بصراحة عن كل ما سأله، وكان أهم سؤال وجهه إليه المحرر: هل المصريون يائسون الآن من مستقبل بلادهم بعد حادثة فاشودة؟

فأجابه: «كلا، إننا لم نيأس، ولن نيأس أبدًا من مستقبل الوطن العزيز، فإننا نعلم علم اليقين أن مصر مقبرة للأمم الطاغية، ونعرف أن حظ إنجلترا فيها سيكون

كحظ الدول المتقدمة عليها، ولكننا إذا كنا غير يائسين من مستقبل بلادنا، فإننا يائسون كل اليأس من أي تعضيد يأتينا من أوربا، وأصبحنا نوجه همتنا ونشاطنا لتعليم الأمة وتربيتها بإنشاء المدارس في أنحائها حيث ينشأ الشباب على أشرف مبادئ الوطنية والشهامة، ويتعلمون من الصغر تاريخ العظمة السالفة، ويربون على الثقة بالمستقبل والإيمان بأن لبلادهم في الأيام الآتية مستقبلًا باهرًا ومقامًا عاليًا».

احتفال مدرسة مصطفى كامل

برئاسة الأمير محمد إبراهيم (٢٧ فبراير سنة ١٩٠٢م)

علت منزلة المترجم في نفوس المصريين لثباته في مجاهدة الاحتلال، وازداد إقبال القراء على (اللواء)، وبدت هذه المنزلة في الاحتفال الذي أقامه لتوزيع الجوائز على النابغين في مدرسته يوم (الخميس ٢٧ فبراير سنة ١٩٠٢م)، فقد حضر الاحتفال نحو أربعة آلاف مدعو، حتى ضاقت بهم ساحة المدرسة، واجتذبت وطنيته إلى ميدان العمل أميرًا من أمراء الأسرة العلوية، وهو «الأمير محمد إبراهيم» ليرأس الاحتفال، فكان أول أمير رأس حفلة عملية أقامها زعيم الوطنية، وهذا يدلك على قوة التأثير المعنوي للفقيد، وهذا التأثير من خصائص الزعيم الوطني.

وقد حضر الاحتفال جمع من الشخصيات الكبيرة في المجتمع، نذكر منهم: يحيى أفندي قاضي قضاة مصر، والأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية، الشيخ سليم البشري شيخ الجامع الأزهر، والشيخ محمد بخيت، حسن باشا عاصم، إسماعيل باشا محمد رئيس مجلس شورى القوانين، إسماعيل باشا صبري الشاعر المشهور (وكيل وزارة الحقانية)، محمود شكري باشا، فيضي باشا، عبد الحميد صادق باشا، عبد السلام باشا المويلحي، وغيرهم. وكانت لجنة الشرف التي تولت توزيع الجوائز مؤلفة من الأمير محمد إبراهيم رئيسها، وحسن باشا عاصم ومحمود شكري باشا عضويها.

وقد خطب في الاحتفال علي بك فهمي كامل شقيق الفقيد ومدير المدرسة عن اطراد سير التعليم فيها ونجاحها، ونوَّه بالقسم المجاني فيها.

وألقى المترجم خطبة فياضة شكر فيها الأمير محمد إبراهيم والمدعوين على حضور الاحتفال بعبارة بليغة، ثم عرج على دعوته الوطنية يبثها في النفوس، وأشاد بنهضة مصر العلمية منذ أوائل القرن التاسع عشر.

محاربة اليأس والثقة في الأمة

ثم دعا إلى التضامن وتوحيد الكلمة والثقة في الأمة قائلًا: «عجبًا وألف مرة عجبًا! كيف تسيء الظن بنفسها أمة تغلبت على الأيام والحوادث، وقاتلت الليالي وما ولدت، وقاومت تيارات الزمان أجيالًا طوالًا، وأقفتها وهي في منتهى قوتها، وكيف يقول بعض أبناء هذه الأمة عنها: إنها ماتت وزالت آثارها وأصبحت نسيًا منسيًّا. وهي التي اهتز لمجدها الشرق والغرب، وسارت الركبان بأحاديث مفاخرها؟ كيف يقضي اليائسون عليها وقد كانت قبل عهد محمد علي أكثر أدواء وأقل أملًا في الشفاء من الآن، ثم عادت لها الحياة والقوة والجاه والعز ورفعة الشأن».

الثقافة الوطنية

«ليست حاجة مصر إلى شيء في هذا الزمان مثل حاجتها إلى تخريج رجال متحدي الكلمة، مثقفي الرأي، عارفين بتاريخها، معتبرين بعبر حوادثها، ناهضين بها، مجدين في سبيل إسعادها، وليس لنا بإنشاء هذه المدرسة غاية غير هذه؛ فإنما نحن لا نرمي إلى تربية موظفين أو إعداد طلاب للشهادات، وإن كان يسرنا على الدوام فوز التلاميذ بين أقرانهم المتعلمين في المدارس الأخرى في الامتحانات العامة، ولكننا نرمي إلى تخريج رجال خلائقهم محبة الوطن والتمسك بالفضيلة والارتباط بعضهم ببعض، والتفاني في خدمة هذه البلاد. نرمي إلى تكوين نفوس

عالية تأبى الضيم والذل وتهوى الشرف والمجد، وترى الحياة بغير عز الأوطان وسعدها شقاء وبلاء».

ثم دعا إلى إحياء اللغة العربية لنشر الثقافة وإحياء الأداب وتقدم الأفكار، وضرب الأمثلة بنهضة اللغة القومية في بلاد المجر؛ إذ كانت أداة للنهضة الوطنية فيها. وكانت خطبته تقاطع في معظم عباراتها بتصفيق الاستحسان.

الأمير محمد إبراهيم

خطبة الأمير محمد إبراهيم

ونهض الأمير محمد إبراهيم، وألقى بلغة عربية فصيحة خطبة قيمة موجزة كان لها تأثير كبير في الحاضرين؛ قال فيها:

«أيها السادة الكرام:

يسرني أن أراكم مجتمعين في هذا النادي -نادي العلم والأدب- فرحين بنجاح أبنائكم نجاحًا يبشر بحسن مستقبلهم وفوز النابغين منهم بالجوائز التي أعدتها لهم المدرسة، وقد زرت هذه المدرسة منذ عامين، وقضيت فيها زمنًا تأكدت فيه أن

القائمين بأمرها والمدرسين لتلاميذها يقومون بواجباتهم حق قيام، ولذلك تعلقت بها وبمن فيها، وما سمعت بهذا الاحتفال إلا وأتيت إليه مسرورًا مرتاحًا.

وإنكم تعلمون جميعًا أن مصر كانت شمسًا تضئ العالمين، ومنبعًا غزيرًا للعلوم والمعارف، ومنبتًا للفضائل ومكارم الأخلاق، ثم قضى الجهل على ذلك كله حتى تولى ملك مصر مولانا العباس الثاني، وعمَّت روح العلوم أنحاء البلاد، وأخذ الجهل يتقلص عن هذه الديار العزيزة.

وإني مسرور جدًّا بحضور هذا الاحتفال واشتراكي معكم في هذا العمل الجليل، وآمل أن هذه المدرسة تكون قدوة لكل راغب في بلوغ المراقي السامية، وأشكر سعادة مصطفى كامل بك لكونه دعاني لرئاسة هذا المحفل، وأسأل الله تعالى أن يوفقنا إلى ما فيه الفائدة تحت رعاية أكبر نصير للعلوم والمعارف مولانا ولي النعم الأفخم الخديوي المعظم».

وقد كانت هذه الحفلة وما حفها من المهابة والجلالة، ورياسة أمير من الأسرة العلوية لها، وخطبته، وخطبة الفقيد فيها، وحضور جمع كبير من أعلام مصر وأقطابها -كل أولئك كان مظهرًا واضحًا بارزًا للمكانة العالية التي بلغها مصطفى كامل بين الطبقة الممتازة من المجتمع، وهذه المكانة كانت فوزًا له وفوزًا للحركة الوطنية التي صارت مرادفة لاسمه.

الاحتفال بالعيد المئيني لمحمد علي (٢١ مايو سنة ١٩٠٢م)

اقترح المترجم على صفحات اللواء إقامة احتفال قومي كبير يوم ١٣ صفر سنة ١٣٢٠هـ (٢١ مايو سنة ١٩٠٢م) تذكارًا لمرور مائة عام هجري على اختيار زعماء الشعب «محمد علي» واليًا على مصر، قال في هذا الصدد تحت عنوان (العيد المئيني لمؤسس العائلة الخديوية):

«خير الأعياد عند الأمم عيد يذكرها بانتقالها من الظلمات إلى النور، وخروجها من الجهالة إلى العلم والحضارة، وارتقائها في سبيل الحياة العالية، وارتباطها بعائلة مالكة أجلستها على العرش بإرادتها وصافحتها للنهوض إلى ذرى العلياء ونوال المنن والنعماء، واعتمدت عليها في إرشادها إلى واجباتها وحقوقها والمقاصد السامية التي يجب أن ترمي إليها».

وبعد أن أشاد بتاريخ «محمد علي» وما قام به من جلائل الأعمال في سبيل إنهاض مصر، دعا إلى الاحتفال بالعيد المئيني لولايته قائلًا: «وهذا التذكار السامي يوافق ميعاده يوم (١٣ صفر سنة ١٣٢٠هـ)، أي لم يبق على حلوله إلا خمسة عشر شهرًا[1]، فليفكر المفكرون فيما يجب على هذه الأمة عمله اعترافًا بفضل محييها، وإجلالًا للوطن نفسه، الذي نهض في عهده نهضته الكبرى، ووثب بين الأوطان وثبة الأسد القاهر، فخير ما يحيي الوطنية في النفوس ويجمع جموع هذا الشعب العظيم الأسيف ذكرى العظمة الأهلية والمجد الوطني، ولمثل هذا فليعمل العاملون ويتنافس المتنافسون».

وفي الحق إن ابتكار الفقيد هذه الفكرة يدل على وطنية عالية ونظر صادق وفكر ناضج؛ لأن خير ما يحفز الأمم إلى الجهاد في سبيل استقلالها المسلوب هو الاحتفال بذكريات مجدها وعظمتها، ففي تلك الذكريات تقارن بين ماضيها وحاضرها وتدرك الفرق بينهما، فتضاعف عزيمتها في الجهاد للتخلص من حاضرها المهين، واستعادة مجدها التليد، فلا غرو أن قوبل الاقتراح بالارتياح من الوطنيين، كما قابله صنائع الاحتلال بالحقد والسخط؛ لأن هذا الاحتفال هو في حقيقته مظاهرة تاريخية قومية ضد الاحتلال، وقد تردد صدى الاقتراح في الصحف الأوربية المحلية فكتبت عنه (الريفورم) مقالًا جاء فيه:

(١) كتبت المقالة في عدد (١٣ شوال سنة ١٣١٨هـ-٣ فبراير سنة ١٩٠١م).

«لقد اقترح رصيفنا وصديقنا مصطفى كامل بك في جريدته (اللواء) اقتراحًا نوافقه عليه كل الموافقة، وهو إقامة احتفال عظيم بتذكار مرور مائة عام على انتخاب أعيان المصريين للرجل العظيم واليًا على مصر، وأن محمد علي هو مؤسس العائلة الحاكمة في مصر، ومنشئ مصر الحديثة نفسها، وقد أظهر مصطفى كامل في مقالته الجميلة العمل الكبير الذي قام به هذا الرجل العظيم، وكيف أنه أنقذ هذه البلاد من الفوضى التي كانت تمزقها وأقام فيه نظامًا محكمًا حتى صارت مصر في عهده من القوة والعظمة بمكان».

وقد نجحت الفكرة نجاحًا رائعًا، وألقى مصطفى كامل بمسرح زيزنيا بالإسكندرية خطبة كبرى يوم ٢١ مايو سنة ١٩٠٢م (١٣ صفر سنة ١٣٢٠هـ) وهو يوم التذكار المئيني لولاية محمد علي، موضوعها (عمل محمد علي وواجبات المصريين نحو وطنهم)، ضمَّنها ما عمله محمد علي لإحياء مصر، وقارن بين مجدها في عهده، وما صارت إليه من الذل والمهانة في عهد الاحتلال، وناشد المصريين أن يهبوا لإحياء مجد مصر واستقلالها ودستورها. وقد كان الإقبال على سماع الخطيب عظيمًا؛ إذ حضر الاجتماع ثلاثة آلاف ونيف من وجوه البلاد وأعيانها وفضلائها وموظفيها وشبابها، وهرع إليه كثيرون من مختلف الأقاليم حتى من أسوان، وقوبلت الخطبة في معظم مواضعها بالتصفيق والاستحسان، وبخاصة عندما ذكر الخطيب ضرورة إنشاء مجلس نيابي لمراقبة أعمال الحكومة وتقييد أعمالها، فكانت دعوة الفقيد إلى المجلس النيابي في هذا الاحتفال الكبير أكبر دعاية للدستور، والخطبة طويلة ممتعة لا سبيل إلى إيرادها أو تلخيصها هنا[1]، وهي خلاصة تاريخية جليلة لأعمال محمد علي، تتخللها استثارة النخوة الوطنية في النفوس. وإنا نكتفي ببعض فقرات منها كنموذج لروح الخطابة وغرض الخطيب؛ قال:

(١) نشرنا معظمها في الفصل الثاني والعشرين.

«من ذا الذي يذكر منا مجد مصر في عهد ذلك الأمير، ولا يذكر أنه مسئول عن زواله مطالب باسترداده».

وقال في موطن آخر:

«بأي قلب أم بأي ضمير أم بأي لسان أحدثكم اليوم معاشر المصريين عن حماية آبائنا للوطن ودفاعهم عنه ونظالهم عن حوزته أيام (محمد علي الكبير). وقد حاولت إنجلترا أن تقضي على هذا الملك الجديد، وهذه الدولة الناشئة، وتزيل من سماء المجد والإقبال هذه الشمس المشرقة، فأراها يومئذ بنو مصر أي أمة هم، وأراهم محمد علي أي أمير هو، فتركت الثغور والبلاد آسفة على فشلها، معجبة بهذا المجد الباهر والعزم القاهر والوطنية الحقة والهمة الحديدية».

وقال أيضًا مشيرًا إلى حالة اليابان حين نهضت مصر في عهد محمد علي:

«أين كانت اليابان يومئذ؟ أين كانت هذه المملكة الناشئة؟ كانت في دياجي الظلمات وغياهب الجهل، تعد إذا ذكرت في عداد الأموات، فقف أيها المصري فوق أطلال التاريخ وارقب الحوادث، وانظر إلى أي حال صارت اليابان، وإلى أي حال صرنا، وماذا كنا نبلغ من الشأن والشأو لو سلكنا ذلك السبيل الذي وجهنا إليه محمد علي الكبير».

وصف الخطبة وتأثيرها

كانت هذه الخطبة من أعظم خطب مصطفى كامل؛ لجلال موضوعها، وقد أحدثت في النفوس تأثيرًا كبيرًا تردد صداه في أرجاء البلاد وفي الدوائر الأوربية، وكانت من أعظم دروس الوطنية التي ألقاها الفقيد في خطبه الكبرى، ويبدو عظم تأثيرها مما كتبته الصحف في وصفها وما احتوى الوصف من إجلال للخطبة والخطيب.

كتب الشاعر الكبير «خليل بك مطران» يصف الاحتفال في «الأهرام»[١] بقوله:

«أكتب إليكم هذه السطور من موضع مشرف على البحر، مجاور له، أسمع منه مناداة حبابه، ومناجاة نسماته، وأرى من حركته الدائمة المستمرة ما يخيل لي أن على ظهر كل موجة مهدًا، يهز صعدًا وخببًا، وأن في المهد أمرأ طفلًا، سيكنون بعد حين أمرأ كهلًا، فهل ذلك الأمر الذي تهزه الأمواج، وتغذيه الشمس وتنميه الليالي، سيكون أمنية مرجوة لمصر تتحقق؟ وهل المناداة والمناجاة اللتان أسمعهما أول أصوات البشرى التي ستعلو بعد حين؟ ذلك ما أوهمتني إياه خطبة مصطفى بك كامل التي سمعتها البارحة بين جمهور لا يقل عن ثلاثة آلاف نفس مختلفي الجنس والدين، وأكثرهم من المصريين، وغير قليل منهم الذين حضروا من القاهرة والريف.

وقف يتكلم في الساعة التاسعة، وقد ضاق النادي على اتساعه بالناس عشرات عشرات في اللوجات، جلوسًا ووقوفًا على الكراسي، وفيما بينها، صامتين تشوقًا إلى ما سيسمعون، منتظمين انتظامًا طبيعيًّا، ليس من عمل شرطي ولا ترتيب بواب، بل من هيبة الموقف ورجاء ما يتوقع».

وبعد أن أتى على ملخص الخطبة ختم رسالته بقوله:

«ولما فرغ الخطيب من التكلم صفق الناس حتى كلت الأيدي، وخرجوا معجبين باقتداره وسعة صدره وشدة إخلاصه، معتبرين بما سمعوه من مؤثر العظات أعظم الاعتبار، وأحاط بالخطيب جمهور من الأصدقاء فهنأوه أحسن تهنئة، ولا غرو فإنه **مصري الحي ولسان ضميرها المجاهر**».

وقالت جريدة (البصير):

---

(١) عدد ٢٤ مايو سنة (١٩٠٢م).

«كان أمس موعد الخطابة التي ألقاها في تياترو زيزنيا حضرة الخطيب المفوه رصيفنا الفاضل سعادة مصطفى بك كامل صاحب اللواء الأغر، فكان الملعب غاصًّا بالحضور؛ وما ساءنا انشغال المكان المعد لنا بقدر ما سرنا ما رأيناه من الزحام الدال على إعجاب المصريين بالخطيب وتشوقهم إلى سماع خطبته الوطنية، فكان يندفع اندفاع السيل بما عرف به من طلاقة اللسان، ويذكر من أعمال مؤسس البيت الخديوي الكريم وواجبات المصريين نحو وطنهم ما يثير الهمم في النفوس الخامدة، ويبعث روح الحياة إلى المشاعر الميتة، مذكرًا المصريين أن كل أمة لا تعتمد على نفسها ولا تثق بمجموعها فلا رجاء لها ولا تبلغ ما تبلغه الأمم المتمدنة في سبيل الحضارة والعمران، ثم أشار إلى الفرق بين مصر اليوم وبينها في عهد محمد علي، فأحاط بجميع أطراف هذا الموضوع بكلام كان غاية في البلاغة ورشاقة التعبير، حتى دوت جوانب المسرح بالتصفيق، وتساقطت على الخطيب طاقات الزهر بالعشرات، وفي الجملة فإن الخطاب كان بديعًا من أكثر وجوهه، لو لم يرد فيه من التحامل على المحتلين وكبار رجال الحكومة ما نشارك في الانتقاد عليه فريقًا ممن كان حاضرًا من العقلاء، لا سيما وأن الموقف لم يكن يحتمل مثل هذه الأبحاث، وفي كل حال فإننا نثني على حضرة الخطيب، وعلى ما رأينا من علائم الوطنية الصادقة التي كانت تبدو بين ثنايا الحضور».

وتردد صدى الخطبة في الصحف الأوربية، ووصفت الخطبة ونوهت بالمنزلة السامية التي نالها الفقيد في اقتياد الحركة الوطنية.

قالت جريدة (الفارد الكسندري) تحت عنوان (مصر للمصريين) ما يأتي:

«لخصنا في عدد أمس الخطبة التي ألقاها أول البارحة بكل اقتدار ونجاح حضرة رصيفنا الفاضل مصطفى بك كامل، وقد أبنا النجاح الذي ناله الخطيب الذي لم يكن ليشك فيه أحد؛ لأن صاحب (اللواء) الوطني الشاب اعتاد مثل هذا النجاح الخطابي الباهر؛ ولكن ما منعنا ضيق الصحيفة عن ذكره البارحة والذي يجب علينا

أن نقوله اليوم هو أن الجمهور العديد الذي حضر خطبة مصطفى بك كامل أظهر من العواطف والميول ما يعد استثنائيًّا بالنسبة لجمهور مصري.

فإن الناس كانوا يعتقدون قبلا أن السواد الأعظم من المصريين لا يعرفون لكلمة (الوطنية) معنى، وأن هذا الاعتقاد الذي كان أصحابه غير مخطئين فيه صار لا محل له الآن؛ لأنه كان يكفي للإنسان أن يرى أول البارحة تيار الوطنية الشديد الذي كان يخترق القاعة ويمر بين كل الصفوف ويشاهد التأثير القوي البادي على الوجوه كلما كان الخطيب يلقي عبارة وطنية ليعتقد أن المصريين يعرفون معنى الوطن والوطنية، فأبناء مصر يظهرون الآن بمظهر الرجال العارفين لحقوقهم وواجباتهم وإخلاصهم نحو الوطن، ولسنا بمبالغين إذا قلنا: إن للخطيب الشاب الذي صفق له الجمهور أي تصفيق يدًا قوية في تغيير الميول المصرية وترقية العاطفة الوطنية، فإن مصطفى بك كامل قام يجاهد بالرغم عن شبابه الغض نحو عشر سنوات لمصلحة وطنه، واستخدم القلم واللسان والتعليم لهذا الغرض الشريف، فهو يربي العاطفة الوطنية في جريدته، ويلقي الخطب عن الوطن وحقوقه، ويعلم في المدرسة التي أنشأها منذ ثلاث سنوات (٢٧٠) تلميذًا، فهو يعمل بهذه الأسلحة الثلاثة لإحياء الروح المصرية».

وكتبت بهذا المعنى جريدة (الريفورم).

ووصفت جريدة (الكوريري إجبسياني) الإيطالية الخطبة بقولها:

«ازدحم الناس ازدحامًا غريبًا على تياترو (زيزنيا) حتى لم يبق مكان لجالس ولا محل لواقف، وما خرج مصطفى بك كامل إلى منبر الخطابة حتى حياه هذا الجمهور الاستثنائي العدد بالتصفيق المستمر، وقد ألقى الخطيب خطبته بقوة جنان وثبات واقتدار، وكانت الوطنية بادية من كل أقواله وإشاراته، والحمية ظاهرة على وجهه، وتأثير خطابته واصل إلى أعماق القلوب، وإن النجاح الذي ناله عظيم، ولا مراء في أنه يستحقه».

ولم يفت جريدة (الإجبشيان جازيت) الإنجليزية التي تعبر عن الاحتلال أن تنوه بجلال الاحتفال مع التحفظ في الوصف؛ إذ قالت:

«ألقى مصطفى بك كامل خطبته البارحة على عمل محمد علي في تياترو زيزنيا، فازدحم المصريون لسماعها، وبعد أن أثنى الخطيب على الباشا الكبير تكلم في الاحتلال البريطاني وذكر الموافقة بين تاريخي جلاء الإنجليز عن الإسكندرية في (١٤ سبتمبر عام ١٨٠٧م) ودخولهم مصر في (١٤ سبتمبر عام ١٨٨٢م)، وطلب من الحاضرين مساعدته على إخراجهم بالثاني».

دعوته إلى الدستور

كان مصطفى مع دعوته إلى الجلاء لا يفتأ يدعو إلى الدستور؛ ليكون أداة الحكم الصالح في مصر. كتب في عدد (٥ أكتوبر سنة ١٩٠٠م) من (اللواء) مقالة بعنوان (الحكومة والأمة في مصر) ذكر فيها وعد اللورد «دفرين» باسم حكومته أن يؤسس في مصر مجلس نيابي، وإخلاف الحكومة البريطانية هذا الوعد كإخلافها وعودها في الجلاء، ثم قال:

«لعمري إذا كان الإنجليز يودون حقيقة أن يعيشوا مع هذا الشعب المصري في وفاق واتفاق ويسيروا به في طريق السعادة كما يدعون، فأول واجب نطالبهم به هو أن يحققوا وعد اللورد دفرين ويجعلوا للحرية والعدالة أساسات قوية متينة لا تستطيع يد بشرية، إنجليزية أو مصرية، أن تمسها بسوء».

وقد دعا إلى الدستور في خطبته في العيد المئيني لمحمد علي يوم (٢١ مايو سنة ١٩٠٢م) كما تقدم بيانه، وكان على صفحات اللواء يدعو إلى المجلس النيابي كأداة لإصلاح عيوب الحكم، كتب في عدد (١٦ نوفمبر سنة ١٩٠٢م) مقالة تحت عنوان (إفلاس الاحتلال) أظهر فيها فساد الأداة الحكومية في المعارف والداخلية، وختمها بقوله:

«وعندي أن هذه الأدوار المختلفة والأدواء المتنوعة دالة كلها على شدة حاجة هذه البلاد إلى مجلس نيابي تكون له السلطة التشريعية الكبرى، فلا يسن قانون بغير إرادته، ولا تحور مادة إلا بمشيئته، ولا يزعزع نظام بغير أمره، ولا تعلو كلمة على كلمته، وإلا فإن بقاء السلطة المطلقة في يد رجل واحد -سواء كان مصريًّا أو أجنبيًّا- يضر بالبلاد كثيرًا ويجر عليها الوبال».

وكتب تحت عنوان (إنشاء مجلس نيابي) في عدد (٩ مارس سنة ١٩٠٤م) من اللواء ما يأتي:

«لعل قراء اللواء وغيرهم من أفراد الأمة المصرية يذكرون ما قلناه من فوق المنابر وكتبناه في هذه الجريدة وغيرها عن وجوب إنشاء مجلس نيابي منذ عشر سنوات كاملات، ويسرهم كما سرنا أن هذا المطلب العزيز صار على ألسنة الكثيرين من أهل القطر؛ لأنه الأنشودة التي يجب أن يترنم بها المصريون بعد طلب الاستقلال، وسواء كان سابقًا أو لاحقًا لتخلص البلاد من رق الاحتلال، فإنه الضمانة الوحيدة والكفالة الصحيحة لسلامة القوانين والحرية الخاصة والعامة». إلى أن قال:

«ليس للاحتلال مصلحة في إيجاد مجلس نيابي لهذه البلاد؛ ولكن صوت الأمة يعلو على صوته إذا تمسكت به ودعت إليه وطالبت وجاهدت بقوة الرأي والفكر والثبات التي هي أكبر القوى الفعالة في حياة الأمم، فلتفعل فإنما هي تخطو بالوصول إليه أكبر خطوة في طريق الاستقلال».

مجيء مدام آدم إلى مصر (يناير سنة ١٩٠٤م)

رغب مصطفى كامل إلى مدام جولييت آدم المجيء إلى مصر ليوطد علاقة الود والحب بينها وبين الوطن المصري، فلبت الدعوة وجاءت في (يناير سنة ١٩٠٤م)، واستقبلها استقبالًا حافلًا، وقد استضافها عمر بك سلطان (باشا) بالمنيا، وصحبها

الفقيد في هذه الرحلة ومعه الأمير «حيدر فاضل» لمشاهدة آثار بني حسن، وذهبوا إلى أسيوط حيث استقبلهم حسين بك فهمي المحامي وأحمد بك خشبة والسيد كامل بك خشبة، وذهبوا إلى البلينا، حيث تناولوا الشاي بمنزل عبد اللطيف بك أبو ستيت، ثم إلى الأقصر حيث استقبلهم بالحفاوة عبد الكريم بك العماري ويسى بك اندراوس، وشاهدوا الآثار المصرية، وذهبوا إلى إسنا، فتناولوا الشاي بمنزل متولي بك حزين ومدني أفندي حزين، ووصلوا في رحلتهم إلى أسوان، فكانوا يقابلون في كل مكان بالحفاوة والإكرام.

وقد حضرت احتفال توزيع الجوائز في مدرسة مصطفى كامل يوم (١٩ فبراير سنة ١٩٠٤م)، وكان احتفالًا فخمًا حضره من شخصيات مصر البارزة يحيى أفندي قاضي القضاة، والشيخ محمد بخيت، والسيد عمر مكرم، وحسين باشا واصف، واللواء بليغ باشا، ودانينوس باشا، وحضرت مدام آدم تصحبها مدام يونج زميلتها في السفر وبعض كبار الأوربيين، وألقى مصطفى كامل في هذا الاحتفال خطبة من خطبه الرنانة ضمنها وجوب تعليم النشء تاريخ بلاده والعناية بالتربية والأخلاق في المدارس.

وقصدت الفيوم في أواخر فبراير، يصحبها مصطفى كامل ومحمد فريد ومدام يونج والكونتس دي كولتور ودانينوس باشا، ونزلوا ضيوفًا على خالد باشا لطفي، وقد رحب بها الفقيد ترحيبًا عظيمًا، وكتب عنها مقالة بعنوان (ضيفة مصر) بعدد (٢٤ فبراير سنة ١٩٠٤م)، نوه فيها بشخصيتها الكبيرة، قال:

«زارت مصر في هذه الأيام أميرة من أكبر أميرات الرأي والقلم والسياسة، ألا وهي مدام جولييت آدم الكاتبة الفرنسية الطائرة الصيت، زارت مصر وقد عشقتها من قديم، وشغفت بها من عهد شبابها، ودافعت عنها بقلمها السيال السنوات الطوال، فلذلك حق لمصر أن ترحب بها، وللمصريين أن يقابلوها بالشكر والإعظام، أتمت ضيفتنا العزيزة في شهر أكتوبر الماضي (١٩٠٣م) السنة السابعة

والستين من عمرها، ومضى عليها خمسون عامًا وهي الكوكب الساطع في سماء الأدب الرائع، ونشرت إلى اليوم اثنين وعشرين مؤلفًا من أرقى المؤلفات وأسماها، وقد نفدت كلها لكثرة الراغبين في مطالعتها والمعجبين بها».

إلى أن قال:

«منحها الخالق كل ما يرجوه الإنسان في حياته، من مال وجلال وعلم وأدب، وسمعة طائرة، ونفوذ كبير، وقد استخدمت كل هذه المواهب في خدمة وطنها، فهو قبلتها، وفي سبيله تضحي كل مرتخص وغال، لم أر في رحلاتي العديدة ومقابلاتي الكثيرة شخصًا أحب وطنه بهذا المقدار، ولم أجد ثباتًا في الحب كثباتها في حب بلادها، وتفانيًا في الخدمة كتفانيها، وأملًا قويًّا في المستقبل كأملها، ملأ اليأس قلوب الكثيرين من الفرنسيين من رجوع الألزاس واللورين لفرنسا، وبقيت هي قوية الآمال، لا تعرف اليأس ولا اليأس يعرفها، وهكذا الوطنية الحقة تجعل الفؤاد راسخًا لا يتزعزع، والعقيدة أقوى من الأطواد، كان لضيفتنا الكريمة الشأن الأعلى والدور المهم في تأسيس الجمهورية الفرنسية والتحالف الفرنسي الروسي، وكم تقررت أمور خطيرة في دارها؛ لأن كبار الجمهورية وفي مقدمتهم «جمبتا» كانوا يسترشدون بأفكارها، ويعترفون بأنها صائبة الرأي، لا تخطئ المرمى، وذلك فضلًا عما كان لزوجها المأسوف عليه «إدمون آدم» من المقام العالي والكلمة المسموعة والخدمات الباهرة، ولولا ثروته الواسعة لما أفلح الحزب الجمهوري في ظروف كثيرة. أحبت مدام آدم بلادها، فأحبت كل محب لبلاده، وعرفت الوطنية الراقية، فأجلتها عند كل وطني، ولذلك تجد اسمها محبوبًا عند الأمم الناشئة المحتاجة إلى المرشد والمعضد، تجد دارها في باريس مزدحمة بالقصاد من أنحاء العالم، كلهم يطلبون منها الإرشاد، ويقدمون لها فرائض الشكر والإعجاب، اعتقدت أن الحق قاهر مهما قُهر في بادئ الأمر، وأنه ذو الكلمة الأخيرة في كل قضية، فأبعدت القنوط عن نفسها وعمن حولها، وكم سمعتُها تبث الآمال في قلوب محبيها الكثيرين بأقوالها

الصادقة وعباراتها المؤثرة، فمثل هذه الضيفة العزيزة من تكرم الدنيا ويعز بنو الإنسان، وإذا كان أكبر صفات المصريين إكرام الضيف وعدم نسيان المعروف، فلا بدع إذا رأيناهم يتسابقون لإكرامها وإعلان شكرهم لها على حبها لبلادهم ودفاعها عنهم؛ فإنها هم يتبتون بهذه المظاهرات الودية أنها لم تخطئ في قولها واعتقادها أن المصريين أحياء، وأنهم سيبهرون العالم بحياتهم ومستقبلهم في القريب العاجل».

وقد أولم الخديوي عباس الثاني لمدام آدم وليمة عشاء فاخرة في قصر القبة (مساء ٢٤ فبراير سنة ١٩٠٤م)، حضرها ستة عشر مدعوًّا من الأمراء والكبراء، وتناول معها الخديوي هو وضيوفه طعام العشاء تكريمًا للضيفة العظيمة.

وذهبت صحبة مدام يونج والمترجم وحسين باشا واصف إلى بورسعيد، فأقيمت لهم حفلة فخمة في المدرسة الواصفية، خطب فيها الفقيد خطبة شيقة، وكان المجتمعون يبلغون عدة آلاف جاءوا تكريمًا لضيفة مصطفى كامل.

وغادرت مصر يوم (٤ مارس سنة ١٩٠٤م) بعد أن أقامت في مصر ستة أسابيع، رأت فيها من الفقيد ومن أنصاره ومن الأمة المصرية غاية الحفاوة والإكرام، وشاهدت مظاهر الحركة الوطنية التي بعثها مصطفى كامل، وقد تأثرت مما لقيته في مصر من الحفاوة، وما شاهدته من عظمة آثارها القديمة، وكتبت في جريدة (الجولوا) الفرنسية مقالة عن الأثر الأول لمشاهداتها، قالت فيها:

«إنَّ أرض مصر تضم كل المدنيات السابقة، وسماء مصر هي أول سماء مزقت فيها السحب حيث سمح بذلك للإنسان أن يشعر بوجود الخالق، ولم يعهد التاريخ أمة بلغت من القوة والعظمة ما بلغته الأمة المصرية حتى صبغت العناصر الأخرى بصبغتها، وبقيت في آنٍ واحد في حالة الفطرة الأولى، مالكة نفسها على مر الزمان، ولم يتحكم الأجنبي في أمة كما تحكم فيها، ولم تتخلص أمة من الأجنبي بصورة مستمرة كما تخلصت هي، وإن استرداد مصر لنفسها أمر تكرر إلى حد أنه صار قانونًا في تاريخها، وأنه ليمكن للإنسان أن يؤكد أن مصر ستبقى إلى الأبد مصر».

الإنعام على الفقيد بالباشوية

أنعم السلطان على الفقيد برتبة الباشوية في (مارس سنة ١٩٠٤م)، فصار يعرف بـ«مصطفى كامل باشا»، وقد كان لهذا الإنعام رنة فرح كبيرة في الأوساط الوطنية، وزادت مكانته رفعةً وعلوًا لما للقب الباشوية من التأثير في نفوس العامة والخاصة في بلادنا.

obeikan.com